سلسلة الأعلام

الفاتحون

تأليف: محمد عبد الظاهر المطارقى

رسوم: عطية الزهيرى

جرافيك: محمد جمال

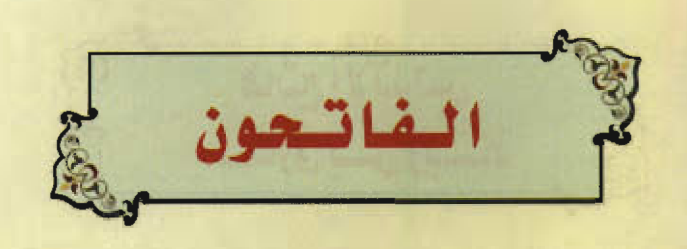


١١ شارع الطوبجى - بين السرايات - الجيزة

تليفاكس: ٧٤٩٣٦٨٥

Site : www.ynabeea.com


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم
مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلاً﴾



الفاتحون

الْفَاتِحُونَ هُمْ مَنْ قَامُوا بِنَشْرِ الإِسْلامِ فِى رُبُوعِ الأَرْضِ؛ عَمَلاً بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ:١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١١٠]

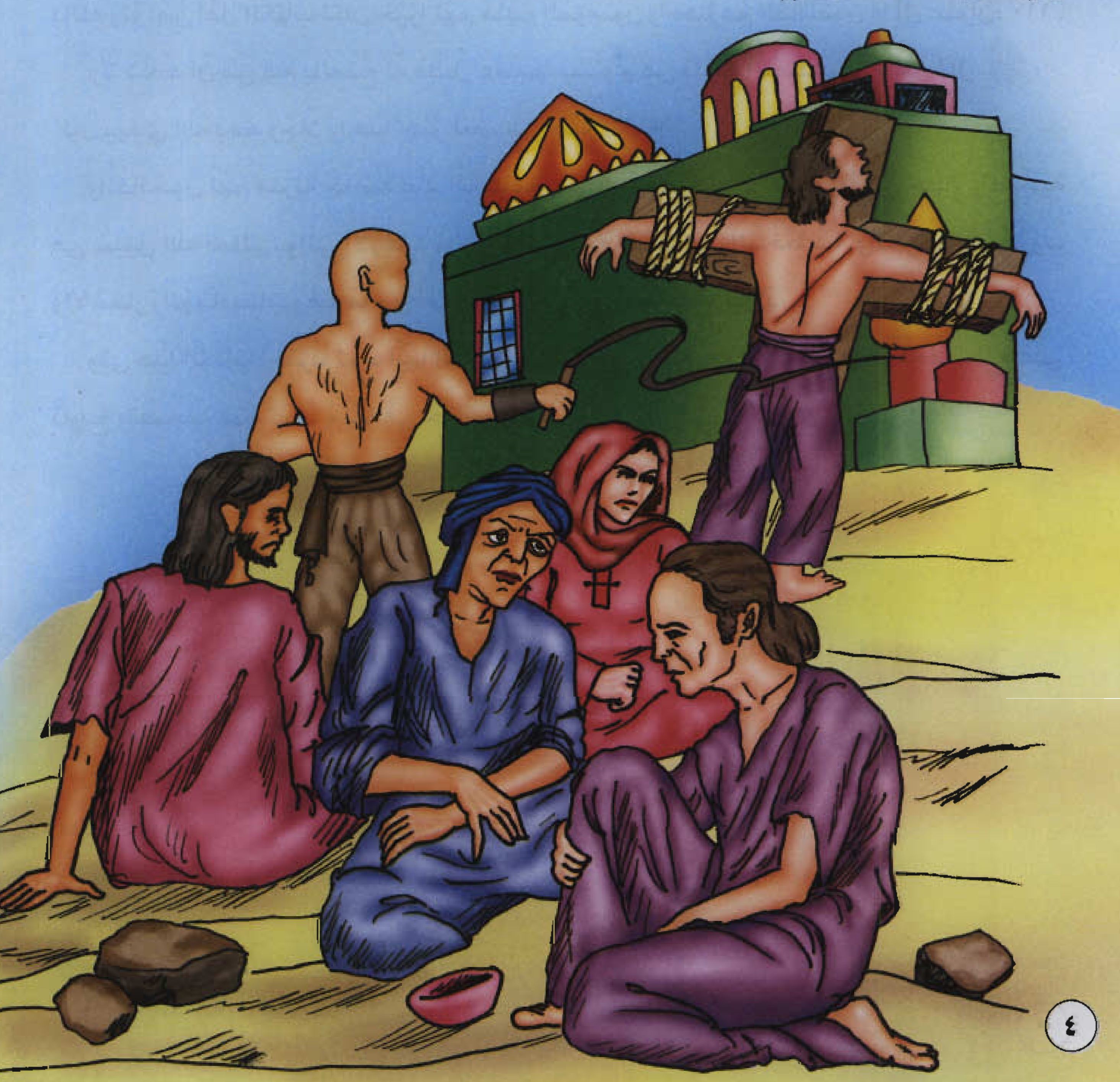
وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ بِالْفَتْحِ لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ؛ يَسْتَوِى فِى ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ وَالْقَائِدُ، قَالَ ﷺ : "لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النِّعَمِ".

وَالْفَاتِحُونَ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفَضْلُ يَرْجِعُ إِلَى مَا بَذَلُوهُ مِنْ جِهَادٍ وَتَضْحِيَةٍ فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، وَإِلَى الأَوْقَاتِ وَالأَزْمِنَةِ الَّتِى قَضَوْهَا فِى التَّخْطِيطِ وَالدِّرَاسَةِ وَالْحُرُوبِ وَالأَسْفَارِ وَالْمُفَاوَضَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى دَانَتْ لَهُمُ الْبِلادُ.

وَفِى هَذَا الْكِتَابِ اخْتَرْنَا لَكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ سِيرَةَ خَمْسٍ مِنْ عِظَامِ الْفَاتِحِينَ، لَعَلَّكَ تَطَّلِعُ عَلَى تَارِيخِ وَتَضْحِيَةِ فَتَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِى حَيَاتِكَ.

فاتح الأندلس
طـــارق بـــن زيـــاد

لَمْ يَكُنِ الكُونْتُ "يُوْليَانُ"- حَاكِمُ سَبْتَةَ - هُوَ وَحْدَهُ الذِي يَبْغَضُ "لذْرِيْقَ"- مَلِكَ القُوطِ - فَغَالِبِيَّةُ الشّعْبِ الأَسْبَانِيّ كَانَ يَمْقُتُ هَذَا الملِكَ، وَيَتَمَنَّى الخَلاصَ مِنْهُ بِأيّةِ صُورَةٍ؛ وَذَلِكَ لِطُغْيَانِهِ الزّائِدِ عَنِ الحَدّ، وَظُلْمِهِ. وَلا غَرْو! فَإنَّ "لذْرِيْقَ" لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ سِوَى بِشئُونِهِ الخَاصّةِ فَقَطْ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى جَمِيْعِ طَوَائِفِ الشّعْبِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ خَدَمٌ وَعَبِيْدٌ، عَلَيْهِمْ فَقَطْ أَنْ يُلَبُّوا أَوَامِرَهُ، وَيُحَقّقُوا لَهُ رَغَبَاتِهِ.



أَمَّا المُقَرَّبُونَ جِدًّا مِنْهُ، فَكَانُوا يُمَارِسُونَ هُمْ أَيْضًا سُلْطَتَهُمْ عَلَى الشَّعْبِ دُوْنَ أَدْنَى رَحْمَةٍ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَسْوَةِ "لذْرِيْقَ" وَبِطَانَتِهِ، إِلا أَنَّ الثُّوَّارَ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ كَانُوا يَخْرُجُونَ بَيْنَ الحِيْنِ وَالآخَرِ يُطَالِبُونَ بِإِسْقَاطِهِ، وَكَانَ المَلِكُ يُرْسِلُ بِجُنُودِهِ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ لِيَقْضِيَ عَلَى هَذِهِ الثَّوْرَةِ أَوْ تِلْكَ، مُسْتَخْدِمًا الأَسْلِحَةَ الفَتَّاكَةَ!

نَعَمْ، كَانَ عَرْشُ "لذْرِيْقَ" عَلَى فَمِ بُرْكَانٍ يَفُورُ وَيَغْلِي، وَتَمَزَّقَتْ إِسْبَانْيَا، وَصَارَتْ شِيَعًا وَأَحْزَابًا، كُلٌّ مِنْهُمْ يَرْنُو إِلَى العَرْشِ بِطَمَعٍ، وَيَنْتَظِرُ اللحْظَةَ المُنَاسِبَةَ للتَّخَلُّصِ مِنَ الطَّاغِيَةِ وَالجُلُوسِ مَكَانَهُ. كَانَ "يُوْلِيَانُ"- حَاكِمُ سَبْتَةَ - نَاقِمًا عَلَى لذْرِيْقَ أَشَدَّ النِّقْمَةِ، فَقَدْ أَخَذَ العَهْدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الطَّاغِيَةِ، وَيُرِيحَ الشَّعْبَ مِنْ ظُلْمِهِ.

وَكَانَ يُولِيَانُ يَعْلَمُ أَنَّ المُسْلِمِيْنَ قَرِيْبُونَ جِدًّا مِنْهُ، فَقَدِ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَفْتَحُوا بِلادَ المَغْرِبِ وَمُعْظَمَ قَارَّةِ أَفْرِيقْيَا، وَصَارُوا عَلَى مَرْمَى حَجَرٍ مِنْهُ، إِلاَّ أَنَّ مَوْقِعَ سَبْتَةَ المَنِيْعَ، وَمُجَالَدَةَ رِجَالِهَا الشُّجْعَانِ، وَيَقَظَةَ حَامِيَتِهَا، قَدْ حَالَ دُوْنَ فَتْحِهَا.

تَقَدَّمَ يُولِيَانُ بِخُطًى ثَابِتَةٍ نَحْوَ مَوْقِعِ المُسْلِمِيْنَ لِيَطْلُبَ مِنْهُمْ غَزْوَ بِلادِ الإِسْبَانِ، وَالانْتِقَامَ مِنْ لذْرِيْقَ المجْرِمِ وَأَعْوَانِهِ، وَمَنَّاهُمْ بِالنَّعِيْمِ وَالخَيْرِ الكَثِيْرِ.

لَمَّا عَلِمَ "مُوْسَى بنُ نُصَيْرٍ"- حَاكِمُ أَفْرِيقيَا - بِرَغْبَةِ "يُولِيَانَ" الجَامِحَةِ، اهْتَزَّ قَلْبُهُ فَرَحًا، فَهَا هُوَ يَنْتَظِرُ مُنْذُ زَمَنٍ الفُرْصَةَ لِكَي يَغْزُوَ تِلْكَ البِلادَ، وَيَنْشُرَ فِيْهَا الإِسْلامَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَبَدًا أَنْ تَأتِيَ إِلَيْهِ هَكَذَا عَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ، لَكِنَّهُ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَبُتَّ فِي الأَمْرِ إِلا بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى خَلِيْفَةِ المُسْلِمِيْنَ "الوَلِيْدِ بن عَبْدِ المَلِكِ"، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَرْسَلَ الأَعْيُنَ؛ لِتَجْمَعَ لَهُ الأَخْبَارَ، حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ صِدْقِ يُولِيَانَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُغَرِّرَ بِجيُوشِ المُسْلِمِيْنَ.

وَوَافَقَ الخَلِيْفَةُ الأُمَوِيُّ، شَرِيْطَةَ أَنْ يَأْخُذُوا كُلَّ الاحْتِيَاطَاتِ الكَافِيَةِ لِسَلامَةِ الجَيْشِ المُسْلِمِ. فَكَّرَ "مُوسَى بنُ نُصَيْرٍ" فِيْمَنْ يَصْلُحُ لِتِلْكَ المَهَمَّةِ. هَزَّ رَأْسَهُ مُبتَسِمًا، فَقَدْ عَثَرَ عَلَيهِ، وَهَلْ هُنَاكَ غَيْرُهُ؟ إِنَّهُ البَطَلُ الهُمَامُ الذِي أَثْبَتَ جَدَارَتَهُ فِي جَمِيْعِ المَهَامِ العَسْكَرِيَّةِ التِي كُلِّفَ بِهَا، وَهُوَ بِجَانِبِ ذَكَائِهِ المُفْرِطِ، وَبُنْيَانِهِ القَوِيِّ العِمْلاقِ، وَهَيْئَتِهِ الحَسَنَةِ، كَانَ مُؤْمِنًا شَدِيْدَ الإِيْمَانِ، حَافِظًا لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَسْبَابٌ جَعَلَتْهُ يَخْتَارُهُ وَالِيًا عَلَى طَنْجَةَ المَغْرِبِيَّةِ، وَالتِي تُشْرِفُ عَلَى البَحْرِ المتَوَسِّطِ، فَأَثْبَتَ جَدَارَتَهُ بِهَا.

نَعَمْ، كَانَ ذَلِكَ القَائِدُ البَارِعُ، هُوَ أَحَدَ القَامَاتِ الشَّامِخَةِ فِي تَارِيْخِ الفُتُوحَاتِ الإِسْلامِيَّةِ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْفُرَ اسْمَهُ بِقُوَّةٍ فِي سَمَاءِ الأَبْطَالِ الشُّجْعَانِ، وَسِيْرَتُهُ العَطِرَةُ لا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ فِي آذَانِ التَّارِيْخِ.. إِنَّهُ "طَارِقُ بنُ زِيَادٍ".

لَمْ يَكُنْ طَارِقًا مِنْ أُصُولٍ عَرَبِيَّةٍ، بَلْ كَانَ مِنَ البَرْبَرِ، مِنْ قَبِيْلَةِ الصَّرْفِ، وَكَانَتْ مَضَارِبُ خِيَامِ هَذِهِ القَبِيْلَةِ فِي جِبَالِ المغْرِبِ العَالِيَةِ، وَهِيَ قَبِيْلَةٌ شَدِيْدَةُ البَأْسِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، لَكِنَّ الإِسْلامَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ فِي عَهْدِ الخَلِيْفَةِ "الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ الملِكِ"، حِيْنَ أَوْكَلَ إِلَى "مُوسَى بنِ نُصَيْرٍ" بِمَهَمَّةِ فَتْحِهَا، وَاجْتَازَ بنُ نُصَيْرٍ تِلْكَ البِلادَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَبْسُطَ نُفُوذَ الإِسْلامِ عَلَى تِلْكَ المَنَاطِقِ الشَّامِخَةِ.

وَهَكَذَا قُدِّرَ لِطَارِقٍ أَنْ يُوْلَدَ فِي بِيْئَةٍ مُسْلِمَةٍ، فَحَفِظَ القُرْآنَ صَغِيْرًا، وَتَعَلَّمَ أُصُولَ الفِقْهِ، وَكَانَ حُلْمُهُ الدَّائِمُ أَنْ يَحْمِلَ السَّيْفَ وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَقَدْ كَانَ.

اطْمَأَنَّ "طَارِقُ بنُ زِيَادٍ" عَلَى صِدْقِ يُولِيَانَ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَنْدَلُسَ لَيْسَتْ مُتَمَاسِكَةً، وَأَنَّهَا قُصُورٌ فِي الهَوَاءِ، عَلَى وَشَكِ السُّقُوطِ، وَأَنَّ الشَّعْبَ المَطْحُونَ يَنْتَظِرُ- بِالفِعْلِ- لَحْظَةَ الخَلاصِ مِنْ ذَلِكَ الطَّاغِيَةِ الفَاسِدِ "لذريْق"، فَاسْتَعَانَ "طَارِقُ بنُ زِيَادٍ" بِاللهِ، وَتَحَرَّكَ بِجَيْشٍ قِوَامُهُ سَبْعَةُ آلافِ جُنْدِيٍّ، مُعْظَمُهُمْ مِنَ البَرْبَرِ المسْلِمِيْنَ، وَعَبَرَ مَضِيْقَ البَحْرِ المتَوَسِّطِ إِلَى الأَنْدَلُسِ، وَتَجَمَّعَ المسْلِمُوْنَ عِنْدَ جَبَلٍ صَخْرِيٍّ عُرِفَ فِيْمَا بَعْدُ بِاسْمِ "جَبَلِ طَارِقٍ"، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ٥ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ ٩٢ هـ، ٢٧ مِنْ إِبْرِيْلَ ٧١١م.



مَا أَنْ وَطِـأَتْ أَقْدَامُ طَـارِقِ بنِ زِيَادٍ أَرْضَ الأَنْدَلُسِ وَمَـنْ مَعَهُ مِـنَ الجُنُودِ، حَتَّى وَضَـعَ خُطَّةً مُحْكَمَةً، أَهَمُّهَا انْتِزَاعُ القِلاعِ وَالحُصُونِ القَرِيْبَةِ مِنَ البَحْرِ، وَجَعْلُهَا حَامِيَةً يَحْتَمِي بِهَا إِذَا اضطُرَّ إِلَى الانْسِحَابِ.

فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، كَانَ لذْرِيْقُ مَشْغُولاً بِإِخْمَادِ بَعْضِ الثَّائِرِيْنَ عَلَيْهِ فِي الجَنُوبِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ أَنْبَاءُ الفَتْحِ، وَاجْتِيَازُ المُسْلِمِينَ لِلقُرَى وَالمُدُنِ، أَسْرَعَ إِلَى طُلَيْطِلَةَ - عَاصِمَةِ بِلادِهِ - وَرَاحَ يُعِدُّ العُدَّةَ، وَيُعْلِنُ حَالَةَ الاسْتِعْدَادِ القُصْوَى لِلحَرْبِ.

كَانَ لذْرِيْقُ مُطْمَئِنًّا مِنَ انْتِصَارِهِ عَلَى المُسْلِمِيْنَ؛ لأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ جَيْشًا هَائِلاً قِوَامُهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُنْدِيٍّ.

لَمَّا عَـلِمَ طَـارِقُ بنُ زِيَادٍ بِجيُوشِ لذْرِيْقَ، أَرْسَلَ فِي الحَـالِ إِلَى مُوْسَى بنِ نُصَيْرٍ يَسْتَنجِدُ بِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنْ خِيْرَةِ الرِّجَالِ، فَصَارَ المُسْلِمُونَ اثْنَي عَشَرَ أَلْفًا.

تَوَجَّهَ لذْرِيْقُ إِلَـى بَلْدَةِ "شذُونَةَ"، وَأَتَمَّ بِهَا اسْتِعْدَادَاتِهِ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَـى لِقَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وَالأَمَلُ يَحْدُوهُ بِالنَّصْرِ المُبِيْنِ.

التَقَى الجَيْشَانِ، وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ شَرِسَةٌ بِالقُرْبِ مِنْ شذُونَةَ، وَكَانَ اللِّقَاءُ قَوِيًّا، وَقَدِ اسْتَطَاعَ المُسْلِمُونَ - بِفَضْلِ اللهِ - أَنْ يُلْحِقُوا بِجيُوشِ القُوطِ هَزِيْمَةً نَكْرَاء، وَسَقَطَ الطَّاغِيَةُ لذْرِيْقُ عَلَى يَدِ البَطَلِ الصِّنْدِيْدِ طَارِقِ بنِ زِيَادٍ، وَكَانَتْ تِلْكَ بِدَايَةً لِمَطْلَعِ شَمْسِ الإِسْلامِ عَلَى بِلادِ الأَنْدَلُسِ.

لَمْ يَكْتَفِ طَارِقٌ بِهَذَا الانْتِصَارِ العَظِيْمِ، بَلْ وَاصَلَ فُتُوحَاتِهِ حَتَّى اسْتَطَاعَ فِي نَفْسِ السَّنَةِ أَنْ يَفْتَحَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ، ثُمَّ أَتَمَّ فَتْحَهَا كَامِلَةً بِمُعَاوَنَةِ الفَـاتِحِ العَظِيْمِ "مُوْسَى ابنِ نُصَيْرٍ".



أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين

كَانَ الْمُنَاخُ العَامُّ فِي بِلادِ الأَنْدَلُسِ سَيِّئًا لِلغَايَةِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَزْدَادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَمْسُ الإِسْلامِ تَسْطَعُ بِقُوَّةٍ عَلَى كُلِّ أَنْحَاءِ البِلادِ، وَتَحَقَّقَتْ فِيْهَا حَالاتٌ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالازْدِهَارِ عَلَى يَدِ مُلُوكٍ أَقْوَيَاءٍ، كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ، مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ بِالأَنْدَلُسِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ، وَالمَنْصُورِ بنِ أَبِي عَامِرٍ، وَغَيْرِهِمْ، إِذَا بِهَا تَنْحَدِرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ لِتَصِيْرَ مَرْتَعًا لِلقَلاقِلِ وَالفِتَنِ، وَرَاحَتْ تَمُوْجُ بِالحُرُوبِ الدَّاخِلِيَّةِ، حَتَّى تَمَزَّقَتْ أَوْصَالُهَا، وَصَارَتْ أَشْلاءً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلَةً وَاحِدَةً، فَأَصْبَحَ هَذَا العَصْرُ الرَّدِيءُ يُسَمَّى عَصْرُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ.



وَهَؤُلاءِ المُلُوكُ كَانُوا فِي الأَسَاسِ وُلاةً، وَكَانَ مِنْهُمُ القُضَاةُ، فَلَمَّا ضَعُفَتِ الدَّوْلَةُ وَأَصَابَهَا الوَهَنُ، اقْتَطَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جُزْءًا لِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَيْهِ، وَتَسَمَّى بِأَلْقَابِ الخُلَفَاءِ مُعْتَقِدًا أَنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُهُ المَهَابَةَ وَالقُوَّةَ.

لَمْ يَتَوَقَّفِ الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، لأَنَّ الأَطْمَاعَ التِي مَلأَتْ قُلُوبَهُمْ جَعَلَتْ كُلاًّ مِنْهُمْ يَبْذُلُ مَبْلَغَ جَهْدِهِ فِي إِلْحَاقِ الخَرَابِ وَالدَّمَارِ بِجِيرَانِهِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَيُحَاوِلُ الاسْتِحْوَاذَ عَلَى أَجْزَاءٍ أُخْرَى مِنَ المُدُنِ لِيَضُمَّهَا إِلَى مُلْكِهِ؛ فَصَارَتْ نِيرَانُ الحَرْبِ تَشْتَعِلُ هُنَا وَهُنَاكَ، وَأَصْبَحَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَتَوَجَّسُ مِنَ الآخَرِ خِيفَةً.

وَالأَنْكَى مِنْ ذَلِكَ هُوَ لُجُوءُ البَعْضِ مِنْهُمْ إِلَى أَحْضَانِ النَّصَارَى مِنْ دُوَلِ أُورُوبَّا، يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمُ الهَدَايَا النَّفِيسَةَ، وَيَعْقِدُونَ مَعَهُمْ عُهُودًا وَأَحْلافًا ضِدَّ إِخْوَانِهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ.

لَمَّا حَدَّقَتْ أَعْيُنُ النَّصَارَى، وَرَأَتْ مَا حَاقَ بِبِلادِ الأَنْدَلُسِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّشَرْذُمِ، أَسْعَدَهَا ذَلِكَ كَثِيرًا، فَقَدْ أَحَسُّوا أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حَانَ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا لِلهُجُومِ عَلَى ذَلِكَ الجَسَدِ المُمَزَّقِ فَرَاحُوا يَدْعُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلوُقُوفِ صَفًّا وَاحِدًا، مِنْ أَجْلِ مُحَارَبَةِ المُسْلِمِينَ، وَاسْتِرْدَادِ دَوْلَةِ الأَنْدَلُسِ.

كَانَ النَّصَارَى يَحْلُمُونَ بِذَلِكَ اليَوْمِ، فَعَادَ الأَمَلُ مُجَدَّدًا إِلَى نُفُوسِ الأَعْدَاءِ، فَقَالُوا: هَا هِيَ الفُرْصَةُ صَارَتْ سَانِحَةً، وَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَغِلَّهَا، فَلْنَحْمِلِ الصَّلِيبَ - شِعَارَنَا المُقَدَّسَ- وَلْنَجْعَلْهَا حَرْبًا ضَرُوسًا نَسْحَقُ فِيهَا هَامَةَ الإِسْلامِ.

وَبِالفِعْلِ، تَقَدَّمَ مَلِكُهُمْ "أَلْفُونسُو السَّادِسُ" وَمِنْ خَلْفِهِ جُيُوشُ النَّصَارَى، وَهَجَمُوا بِكُلِّ شَرَاسَةٍ وَعُنْفٍ عَلَى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وَاسْتَطَاعَ اللَّعِينُ الفُونسُو أَنْ يُلْحِقَ بِالمُسْلِمِينَ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَيَسْتَوْلِيَ عَلَى "طُلَيْطِلَةَ"، وَيَرْفَعَ عَلَيْهَا الصُّلْبَانَ.

ازْدَادَ النَّصَارَى أَمَلاً فِي اخْتِرَاقِ بَقِيَّةِ البِلادِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا حَدَثَ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا، وَغَرِقُوا حَتَّى آذَانِهِمْ فِي المَلَذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَأَنَّ الأَمْرَ لا يَعْنِيهِمْ بَلْ إِنَّ البَعْضَ مِنْهُمْ كَانَ يَلْجَأُ إِلَى أَلفُونسُو - مَلِكِ النَّصَارَى - بِكُلِّ خِسَّةٍ وَنَذَالَةٍ، لِيَتَعَاوَنَ مَعَهُ ضِدَّ إِخْوَانِهِ فِي العَقِيدَةِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى لَهُ وَأَفْضَلُ لِتَأمِينِ مُلْكِهِ، مُقَدِّمًا المَالَ الطَّائِلَ وَالهَدَايَا النَّفِيسَةَ لِمَلِكِ النَّصَارَى.



اسْتَطَاعَ الفُونسُو السَّادِسُ أَنْ يَحْتَلَّ "طُلَيْطِلَةَ" عَامَ ٤٧٨هـ- ١٠٨٥م، ثُمَّ مَدِيْنَةَ "قُورِيَةَ"، وَوَصَلَ إِلَى ضَوَاحِي "إِشْبِيْلِيَّةَ"، وَحَاصَرَ قَلْعَةَ سرْقسْطَةَ الحَصِيْنَةَ، وَأَخَذَ يَحْتَلُّ مُدُنَ الإِسْلامِ الوَاحِدَةَ تِلْوَ الأُخْرَى، وَأَهَمُّهَا طَرْكُونَةُ، وَبرَاغَةُ، وَقلمروِيَةُ، وَمجرِيطُ.

وَالحَقُّ أَنَّ المُسْلِمِيْنَ حَاوَلُوا مُقَاوَمَتَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الصُّمُودَ طَوِيْلاً أَمَامَ ضَرَبَاتِ النَّصَارَى المُتَوَالِيَةِ. عَمَّتِ البِلادَ حَالاتٌ مِنَ الخَوْفِ وَالقَلَقِ عَلَى مَصِيْرِهِمْ وَمَصِيْرِ الإِسْلامِ، وَانْتَقَلَ ذَلِكَ الإِحْسَاسُ إِلَى كِبَارِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ، حِيْنَ تَنَبَّهُوا مِنْ سُبَاتِهِمُ العَمِيْقِ، لِيَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ دَاخِلَ مِنْطَقَةٍ خَطِرَةٍ، وَالهَلاكُ مُحْدِقٌ بِهِمْ، وَصَارَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مِنْهُمْ.

هُنَا فَقَطْ تَنَاسَوا أَطْمَاعَهُم، وَحَاوَلُوا أَنْ يُلَمْلِمُوا صُفُوفَهُمْ وَيَجْمَعُوا شَمْلَهُمْ. فَاجْتَمَعُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ اسْتِدْعَاؤُهُمْ لأَحَدِ القَادَةِ العِظَامِ، إِنَّهُ البَطَلُ الصِّنْدِيدُ المؤمِنُ يُوسُفُ بنُ تَاشَفِينَ، أَمِيرُ المَغرِبِ، وَالقَائِدُ العَامُّ لجيُوشِ المُرَابِطِينَ.

هُوَ: "يُوسُفُ بنُ تَاشَفِيْنَ بنِ إِبْرَاهِيْمَ اللمتُونِيّ الصّنْهَاجِي"، وَهُوَ مِنْ قَبِيْلَةٍ قَوِيَّةٍ، وَكَانَتْ لَهَا السِّيَادَةُ وَالقِيَادَةُ عَلَى القَبَائِلِ الأُخْرَى. وَهَذَا مَا كَانَ لَهُ أَبْلَغُ الأَثَرِ عَلَى طُفُولَتِهِ وَحَيَاتِهِ، فَقَدْ نَشَأَ عَزِيْزًا كَرِيْمًا، أخذَ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ مِنْ فَمِ الإِمَامِ الفَقِيْهِ ابنِ يَاسِيْنَ، وَتَرَبَّى عَلَى حُبِّ الجِهَادِ، فَضْلاً عَنْ صِفَاتِهِ النَّبِيْلَةِ التِي طُبِعَ عَلَيْهَا، كَالشَّجَاعَةِ، وَالمُرُوءَةِ، وَالكَرَمِ، وَإِغَاثَةِ المَلْهُوفِ، وَنُصْرَةِ المَظْلُومِ، وَمُسَانَدَةِ الضّعِيْفِ، إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا.

وَلَقَدْ مَرَّ "يُوسُفُ" بِتَجَارِبَ عَدِيْدَةٍ أَثْقَلَتْهُ وَحَنَّكَتهُ، وَأَظْهَرَتْ مَوَاهِبَهُ الكَامِنَةَ، فَظَهَرَ اسْمُهُ، وَتَأَلَّقَ نَجْمُهُ، لِيَصِيرَ قَائِدًا لِجُيُوشِ المُرَابِطِيْنَ فِي مَعْرَكَةِ الوَاحَاتِ ٤٤٨ هـ - ١٠٥٦م.

اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ مَدِيْنَةَ "سجلماسة"، وَيَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِأَمْرٍ مِنَ الأَمِيْرِ أَبِي بَكْرِ بنِ عُمَرَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الفِرَقِ الضَّالَّةِ، وَيَضُمُّ غَالِبِيَّتَهُمْ إِلَى صُفُوفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

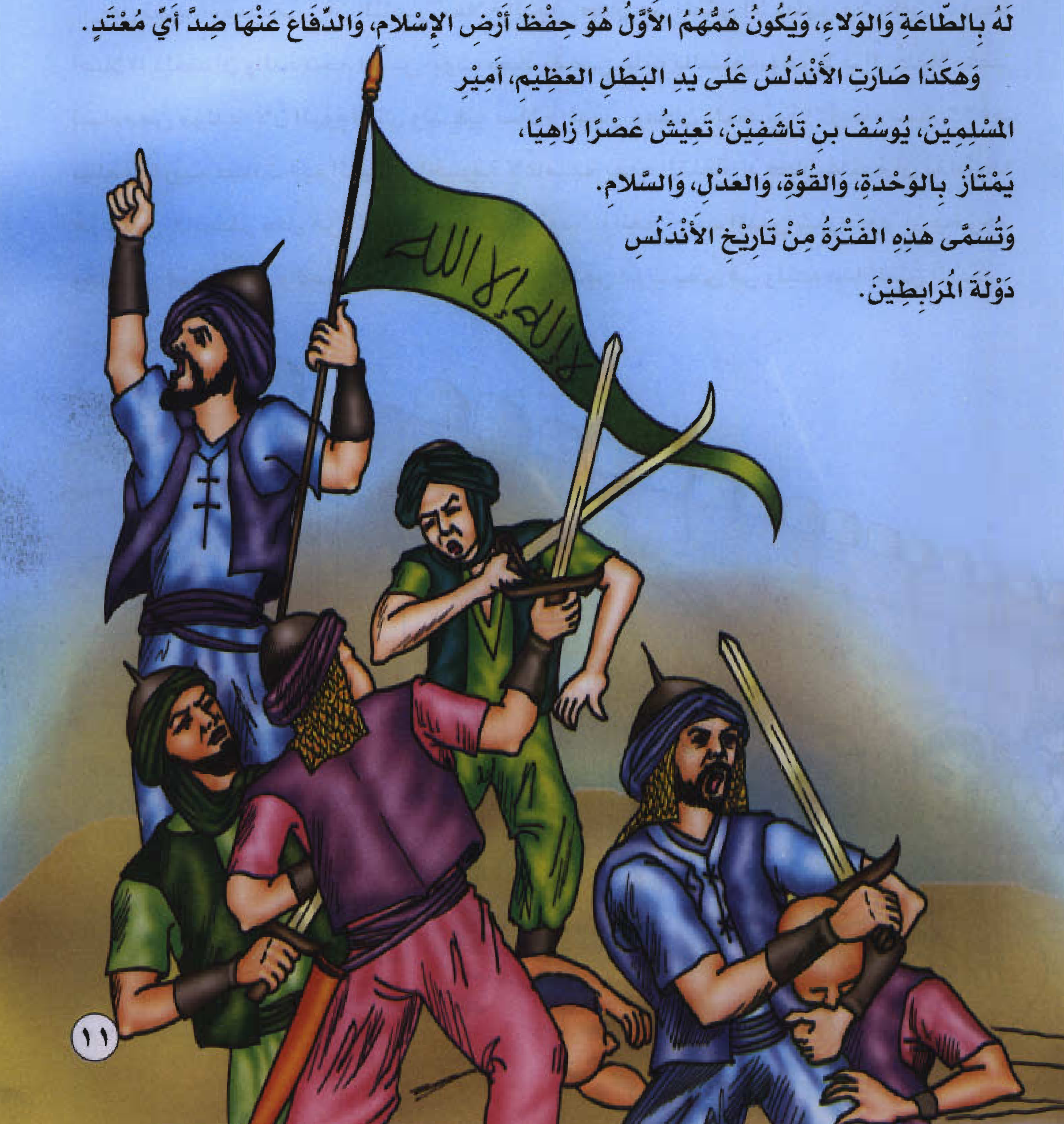
لَمَّا بَلَغَتْ "يُوسُفَ بنَ تَاشَفِيْنَ" الأَحْوَالُ المتَرَدّيَةُ فِي بِلادِ الأَنْدَلُسِ، لَمْ يَتَوَانَ فِي النّجْدَةِ، فَقَدْ تَحَرَّكَ بِجيُوشِهِ القَوِيَّةِ المؤمِنَةِ، وَانْتَقَلُوا عَبْرَ البَحْرِ المتَوَسّطِ، لِيَتَفَاجَىء "الفُونسُو" بِجُنُودٍ شُجْعَانَ، لا يَعْرِفُونَ غَيْرَ المَوْتِ أَوِ النّصْرِ.

وَاسْتَطَاعَ يُوسُفُ بنُ تَاشَفِيْنَ بِخُطَطِهِ العَبْقَرِيَّةِ، وَبِجيُوشِ المُرَابِطِيْنَ مِنْ وَرَاءِهِ، أَنْ يُلْحِقَ بِمَلِكِ النّصَارَى هَزِيْمَةً سَاحِقَةً، وَعُرِفَتْ هَذِهِ المَعْرَكَةُ المُبَارَكَةُ بِاسْمِ "مَعْرَكَةِ الزّلاقَةِ"، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ ١٢ رَجَبٍ ٤٧٩ هـ، ٢٣ أُكْتُوبَر ١٠٨٦م.

وَقَدْ أَثْبَتَ جَيْشُ المُرَابِطِيْنَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ. وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، عَادُوا إِلَى المغْرِبِ دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي نَيْلِ مَكْسَبٍ مِنْ تِلْكَ الغَنَائِمِ الهَائِلَةِ التِي تَحَقَّقَتْ عَلَى أَيْدِيْهِمْ. لَقَدْ كَانَ هَدَفُهُمْ اسْتِعَادَةَ أَرْضِ الإِسْلامِ، أَمَّا الغَنَائِمُ فَقَدْ تَرَكُوهَا كُلَّهَا لِلمُسْلِمِيْنَ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ! وَلَمَّا تَكَرَّرَ تَخَاذُلُ مُلُوكِ الطَّوائِفِ، لَمْ يَجِدْ ابنُ تَاشَفِيْنَ فِي النِّهَايَةِ غَيْرَ وَسِيْلَةٍ وَاحِدَةٍ لِحِفْظِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ، فَبَعْدَ تَشَاوِرِهِ مَعَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ، تَوَصَّلُوا إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ أَنْ يَضُمَّ ابنُ تَاشَفِيْنَ جَمِيْعَ بِلادِ الأَنْدَلُسِ لِتَكُوْنَ تَحْتَ سَيْطَرَتِهِ، يَحْكُمُهَا رِجَالٌ صَادِقُونَ، يَدِينُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالوَلاءِ، وَيَكُونُ هَمُّهُمُ الأَوَّلُ هُوَ حِفْظَ أَرْضِ الإِسْلامِ، وَالدِّفَاعَ عَنْهَا ضِدَّ أَيِّ مُعْتَدٍ.

وَهَكَذَا صَارَتِ الأَنْدَلُسُ عَلَى يَدِ البَطَلِ العَظِيْمِ، أَمِيْرِ المُسْلِمِيْنَ، يُوسُفَ بنِ تَاشَفِيْنَ، تَعِيْشُ عَصْرًا زَاهِيًا، يَمْتَازُ بِالوَحْدَةِ، وَالقُوَّةِ، وَالعَدْلِ، وَالسَّلامِ.

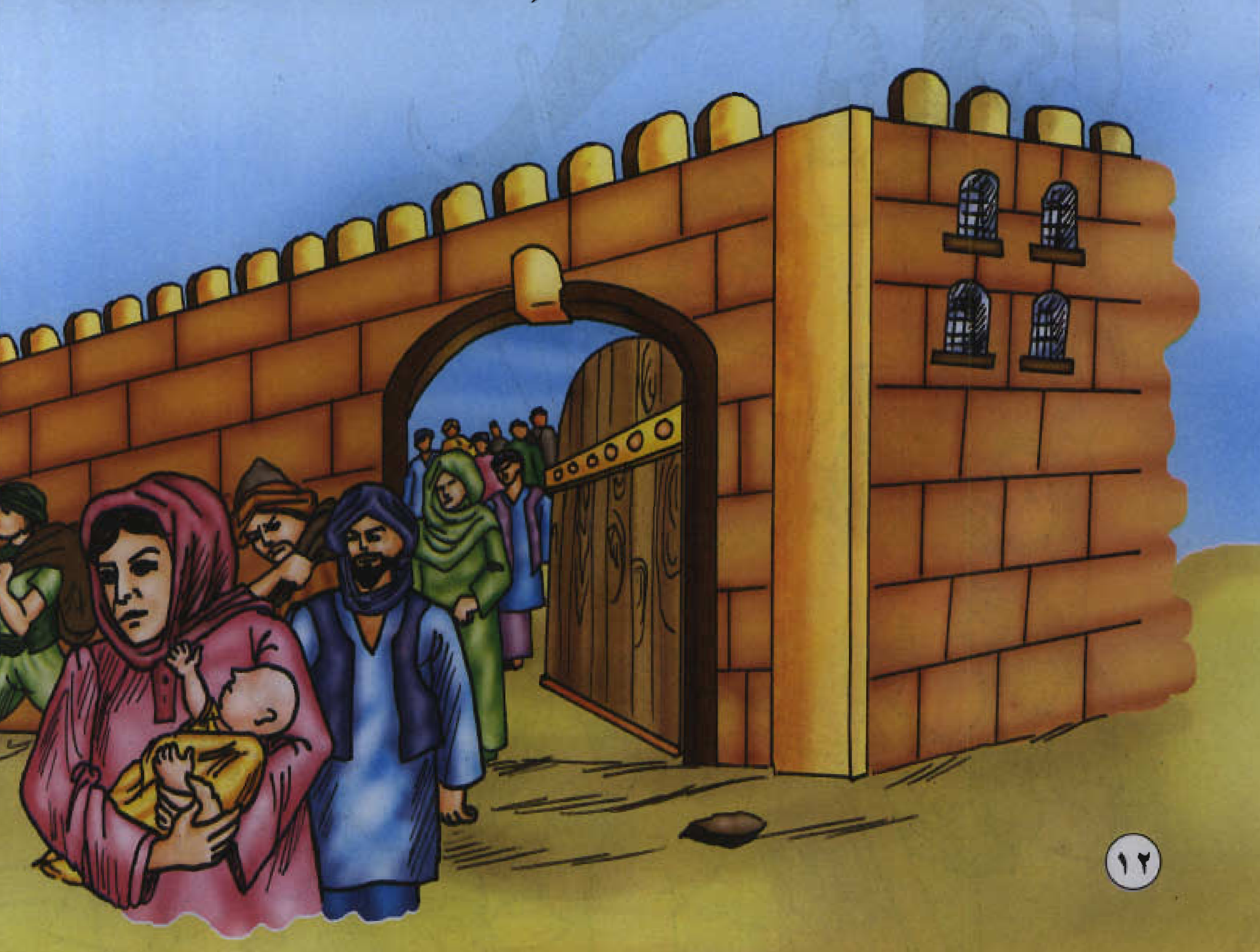
وَتُسَمَّى هَذِهِ الفَتْرَةُ مِنْ تَارِيْخِ الأَنْدَلُسِ دَوْلَةَ المُرَابِطِيْنَ.



الملك الناصر
صلاح الدين الأيوبي

أَجْمَعَتْ كُتُبُ التَّارِيْخ، أَنَّ هَذَا القَائِدَ العَظِيْمَ أُنْمُوذَجٌ عَبْقَرِيٌّ فِي النُّبْلِ وَالمُروءَةِ وَالشَّجَاعَةِ. وَقَدْ شَهِدَ بِأَخْلاقِهِ الفَاضِلَةِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ الصّليبِيّينَ، فَضْلاً عَنْ أَصْدِقَائِهِ المُقرَّبِيْنَ، وَكُلِّ مَنْ تَنَاوَلَ سِيْرَتَهُ العَطِرَةِ مِنَ المُتْرجِمِيْنَ وَالمُؤرِّخِيْنَ.. إِنَّهَا شَخْصِيَّةٌ عِمْلاقَةٌ.

هَلْ تَعْرِفُ - صَدِيْقِي - أَنَّ النَّاصِرَ "صَلاحَ الدِّيْنِ" كَانَ مِنَ المُمْكِنِ أَلا يَظْهَرَ، وَلا يَكُونَ لَهُ ذِكْرٌ أَصْلاً؟! ذَلِكَ أَنَّ وَالِدَهُ نَجْمَ الدّينِ أَيُّوبَ، كَادَ يَقْضِي عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَهُوَ لا يَزَالُ طِفْلاً؛ فَقَدْ تَشَاءَمَ مِنْ مَوْلِدِهِ؛ لأَنَّ اليَوْمَ الذِي وِلِدَ فِيْهِ صَلاحُ الدِّيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الأَرْبعَاءِ سَنَةِ ٥٣٢هـ، بِقَلْعَةِ تِكْرِيْتَ، كَانَتْ فِيْهِ النِّهَايَةُ المَحْتُومَةُ لإِقَامَتِهِمْ بِهَذِهِ القَلْعَةِ؛ إِذْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُغَادِرُوهَا مُرْغَمِيْنَ، فَاضطُرَّ كُلٌّ مِنَ الأَبِ "نَجْمِ الدِّيْنِ أَيُّوبَ"، وَالعَمّ " أَسَدِ الدِّيْنِ شِيْرِكُوه" أَنْ يَخْرُجَا وَهُمَا فِي قِمَّةِ الأَسَى وَالحُزْنِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ نَجْمَ الدِّيْنِ أَيُّوبَ يَظُنُّ فِي وَلِيْدِهِ هَذَا الظَّنَّ السَّيِّئَ.



بَيْدَ أَنَّ البَعْضَ مِنْهُم أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَهَّل وَلا يَفعَلَ، فَإنَّهُ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ طِفْلٌ لا ذَنْبَ لَهُ وَلا جَرِيْرَةً، وَالله تَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ، فَلَعَلَّ الخَيْرَ يَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ، وَاسْتَجَابَ نَجْمُ الدِّيْنِ لِنَصِيْحَتِهِمْ.

وتَحَرَّكَتْ جُمُوعُ العَائِلَةِ أُسْرَةُ نَجْمِ الدّينِ وَشَقِيْقِه أَسَدِ الدِّيْنِ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَمْتِعَتَهُم، وَاتَّجَهُوا نَحْوَ "المَوْصِلِ"؛ لِيُقِيْمُوا عِنْدَ صَدِيْقٍ قَدِيْمٍ يُدْعَى "عِمَادُ الدِّيْنِ زِنْكِي".

كَانَ عَالَمُنَا الإِسْلامِيُّ فِي بِلادِ المَشْرِقِ يَمُوجُ بِالفِتَنِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَيُحَارِبُونَ بَعْضَهُم بَعْضًا، وَاسْتَحْوَذَ كُلُّ وَالٍ مِنَ الوِلاةِ عَلَى مَا تَحْتَ وِلايَتِهِ، وَجَعَلَهَا دُوَيْلَتَهُ، يُدَافِعُ عَنْهَا، وَيَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لِيَسْطُوَ عَلَى مَنْ حَوْلَه.. وَيَنْتَزِعُ الأَجْزَاءَ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَيَضُمُّهَا إِلَى أَرْضِهِ؛ وَلا يَعْنِيْهِ أَنْ تَتَمَزَّقَ دَوْلَةُ الإِسْلامِ وَتَضْعُفَ.

وَالذِي دَفَعَهُم إِلَى ذَلِكَ هُوَ حَالَةُ الضَّعْفِ وَالهَوَانِ التِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الخِلافَةُ العَبَّاسِيَّةُ، مِمَّا أَفْقَدَهَا هَيْبَتَهَا، وَجَعَلَهَا مَطْمَعًا لِلأَعْدَاءِ المُتَرَبِّصِيْنَ، وَالذِيْنَ جَاءوا مِنْ بِلادِ الإِفْرِنْجِ يَحْمِلُونَ شِعَارَهُم المُقَدَّسَ "الصَّلِيْبَ"، وَيَحْدُوهُم الأَمَلُ فِي غَزْوِ المُسْلِمِيْنَ، وَالاسْتِيْلاءِ عَلَى خَيْرَاتِهِمْ، وَقَتْلِ أَبْنَائِهِمْ، وَالقَضَاءِ عَلَى دِيْنِهِمْ، وَانْتِزَاعِ القُدْسِ الشَّرِيْفِ مِنْ بيْنِ أَيْدِيْهِمْ.

وَتَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، وَصَارَتِ القُدْسُ فِي حَوْزَتِهِمْ، وَابْتَلَعُوا الكَثِيْرَ مِنَ البِلادِ المُجَاوِرَةِ، وَبِكُلِّ أَسَفٍ، فَإِنَّ حُكَّامَ المُسْلِمِيْنَ قَدْ خَافُوا عَلَى مُلْكِهِمْ، فَكَانَ الوَاحِدُ مِنْهُم يَذْهَبُ إِلَى هَؤُلاءِ الغُزَاةِ فَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ، وَيَطْلُبُ مِنْهُم العَوْنَ وَالسَّدَادَ وَالحِمَايَةَ، وَيَسْتَعِيْنُونَ بِهِمْ عَلَى ضَرْبِ إِخْوَانِهِم نَظِيْرَ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ يَقُومُونَ بِدَفْعِهَا إِلَيْهِمْ.

نَعَمْ، هَذِهِ صُوْرَةٌ سَرِيْعَةٌ لِلعَالَمِ الإِسْلامِيّ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، فَقَيَّدَ اللهُ تَعَالَى لِلإِسْلامِ بَطَلاً فَذًّا، وَمُجَاهِدًا عَظِيْمًا، هُوَ "عِمَادُ الدِّيْنِ زِنْكِي"؛ لِيَعْمَلَ عَلَى رَأْبِ الصَّدْعِ، وَتَوْحِيْدِ الصَّفِّ.

كَانَ ذَلِكَ هُوَ هَدَفَهُ الأَوَّلَ؛ لأَنَّ النَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ لا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَأْتِيَ فِي ظِلِّ التَّفَرُّقِ وَالتَّمَزُّقِ وَالتَّشَرْذُمِ الذِي أَصَابَ المُسْلِمِيْنَ.

وَقَدِ انْتَقَلَتِ الرَّايَةُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى البَطَلِ الثَّانِي "نُورِ الدِّيْنِ مَحْمُودٍ"، وَالذِي كَانَ لَهُ أَبْلَغُ الأَثَرِ فِي تَوْحِيْدِ مُعْظَمِ البِلادِ، وَالعَمَلِ عَلَى مُقَاتَلَةِ الأَعْدَاءِ؛ فَسَارَ عَلَى دَرْبِ أَبِيْهِ "عِمَادِ الدِّيْنِ".

كَانَ نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوبُ، وَأَخُوهُ أَسَدُ الدِّيْنِ شِيْرِكُوه، قَدِ اطْمَأَنُّوا إِلَى وجُودِهِم عِنْدَ عِمَادِ الدِّيْنِ زِنْكِي، وَاطْمَأَنَّ هُوَ أَيْضًا إِلَيْهِمْ، وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُم لا يَزَالُونَ أَهْلاً للثِّقَةِ؛ فَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ، وَعَمِلَ عَلَى تَقْرِيْبِهِمْ، وَجَعَلَهُم مَوْضِعَ ثِقَتِهِ وَاعْتِمَادِهِ.

وَهَكَذَا تَرَبَّى "صَلاحُ الدِّيْنِ"، وَعَاشَ هُوَ وَعَائِلَتُهُ الكَرِيْمَةُ فِي كَنَفِ "عِمَادِ الدِّيْنِ زِنْكِي"؛ فَتَرَبَّى عَلَى الفُرُوسِيَّةِ، وَأَحَبَّ الجِهَادَ. وَقَدْ شَاهَدَ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ كَيْفَ يَتِمُّ التَّخْطِيْطُ للمَعَارِكِ، فَضْلاً عَنْ دُرُوسِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ التِي كَانَ يَحْضرُهَا فِي المَسْجِدِ، وَتَأْسِيْسِهِ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ عَلَى أَيْدِي كِبَارِ العُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، حَتَّى صَارَ عَالِمًا بِأُصُولِ الشَّرِيْعَةِ، فَقِيْهًا فِي أُمُورِ الدِّيْنِ.

وَلَمَّا تَوَلَّى "نُورُ الدِّيْنِ مَحْمُودٌ" الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ وَالِدِهِ، اسْتَنَدَ إِلَى "الأَيُّوبِيِّينَ"، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِمْ الكَثِيْرَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَكَانُوا يَبْذُلُونَ قُصَارَى جَهْدِهِم مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ الإِسْلامِ، وَلِيَظَلُّوا دَائِمًا مَوْضِعَ الثِّقَةِ وَالتَّقْدِيْرِ.

وَهَذَا مَا دَفَعَ بِالسُّلْطَانِ "نُورِ الدِّيْنِ مَحْمُودٍ" أَنْ يُقَرِّبَ "صَلاحَ الدِّيْنِ"، وَيُوصِي بِهِ خَيْرًا، وَيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَهُ، حَتَّى عَيَّنَهُ كَبِيْرًا للشُّرْطَةِ - بِرَغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ - لِمَا وَجَدَ فِيْهِ مِنْ ذَكَاءٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيْرِ.

وَقَدِ اسْتَطَاعَ "صَلاحُ الدِّيْنِ" أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَيْدِي اللصُوصِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيْقِ بِيَدٍ مِنْ حَدِيْدٍ، حَتَّى سَادَ الأَمْنُ وَالأَمَانُ فِي رُبُوعِ الشَّامِ. وَقَدْ أَحَسَّ "نُورُ الدِّيْنِ مَحْمُودٌ" بِنَظْرَتِهِ الثَّاقِبَةِ أَنَّ هَذَا الفَتَى "صَلاحَ الدِّيْنِ" سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ، وَسَيَأْتِي الخَيْرُ عَلَى يَدَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

لَمْ تَكُنْ نَظْرَةُ "نُورِ الدِّيْنِ مَحْمُودٍ" وَحْدَهَا التِي تُدْرِكُ مَوْهِبَةَ صَلاحِ الدِّيْنِ؛ فَعَمُّهُ "أَسَدُ الدِّيْنِ شِيْرِكُوه" كَانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يُصِرُّ عَلَى أَخْذِهِ مَعَهُ ضِمْنَ الجَيْشِ الذَّاهِبِ إِلَى مِصْرَ، وَبِرَغْمِ رَفْضِ الشَّابِّ صَلاحِ الدِّيْنِ الذَّهَابَ، إِلا أَنَّ العَمَّ "شِيْرِكُوه" تَمَسَّكَ بِهِ، وَأَصَرَّ عَلَى مُصَاحَبَتِهِ. وَبَعْدَ مُحَاوَلاتٍ مُضْنِيَةٍ لإِقْنَاعِهِ خَرَجَ صَلاحُ الدِّيْنِ زَاهِدًا فِي الذَّهَابِ، إِلا أَنَّهُ أَصْبَحَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيْلَةٍ سُلْطَانًا لِمِصْرَ، ثُمَّ مَلِكًا لِمِصْرَ وَالشَّامِ، لِيَتَحَقَّقَ الحُلْمُ الأَعْظَمُ بِخُرُوجِ الصَّلِيْبِيِّنَ مِنَ القُدْسِ وَمِنْ سَائِرِ البِلادِ الشَّامِيَّةِ، فِيْمَا عَدَا القَلِيْلِ مِنْهَا.

نَعَمْ، ذَهَبَ "صَلاحُ الدِّينِ " بِصُحْبَةِ عَمِّهِ "أَسَدِ الدِّيْنِ شِيْرِكُوه" إِلَى مِصْرَ، فَاتَّجَهَ شِيْرِكُوه إِلَى غَزَّةَ، فَالقَاهِرَةِ، بَيْنَمَا اتَّجَهَ صَلاحُ الدِّيْنِ بِالكَتِيْبَةِ التِي يَقُودُهَا نَحْوَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ. وَلَجَ صَلاحُ الدِّيْنِ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ مَشْدُودَ القَامَةِ، مَرْفُوعَ الهَامَةِ، وَسَعِدَ لِمَقْدِمِهِ وَتَرْحِيبِ أَهْلِهَا.

وَلَمْ يَلْبَثْ صَلاحُ الدِّينِ إِلا قَلِيْلاً حَتَّى اخْتِيْرَ وَزِيْرًا لِلْخَلِيْفَةِ الفَاطِمِي "العَاضِدِ بِاللهِ"، فَقَضَى

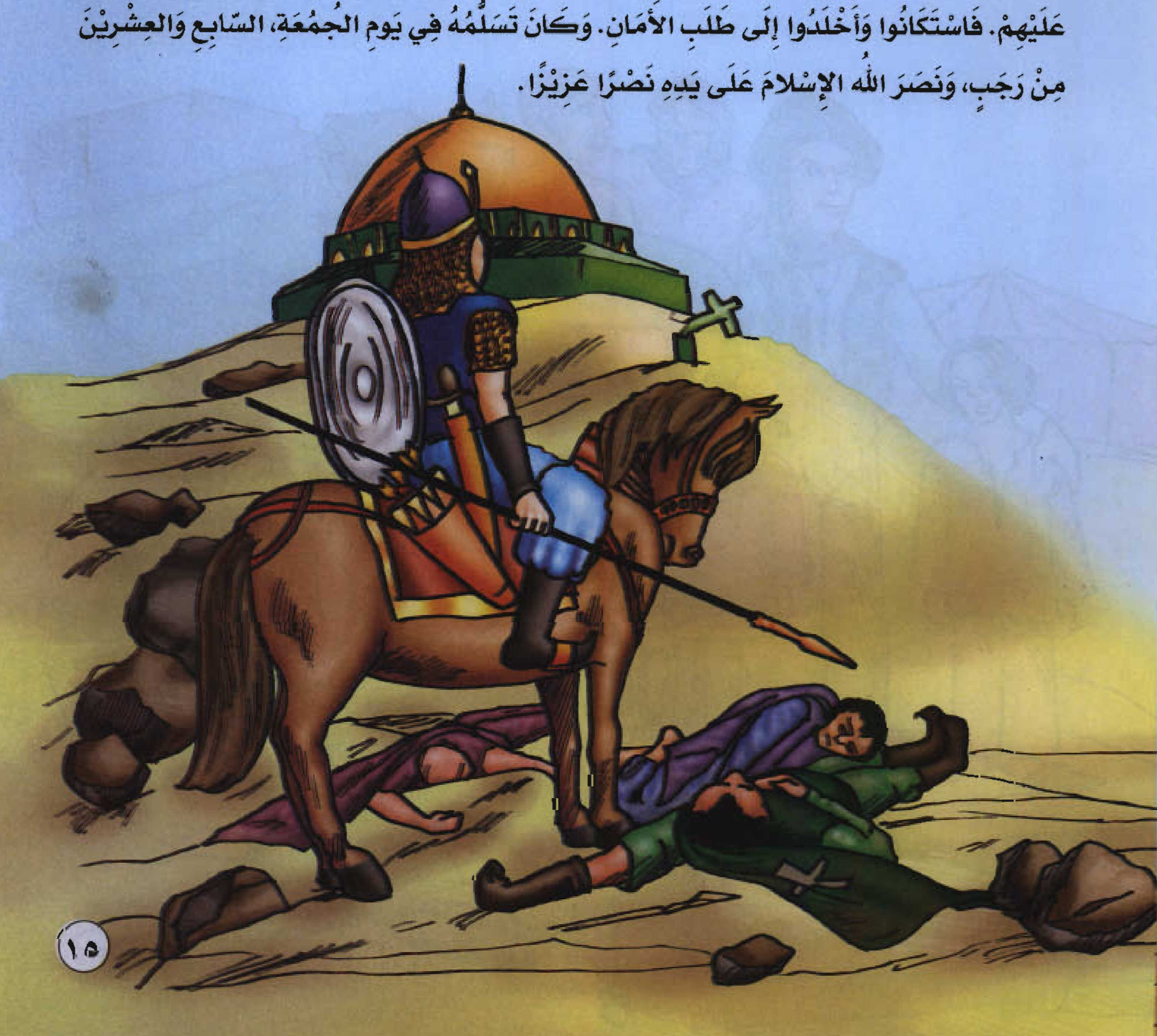
عَلَى كُلِّ الفِتَنِ وَالقَلاقِلِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَعَمِلَ جَاهِدًا عَلَى وَحْدَةِ المُسْلِمِيْنَ.

وَلَمَّا مَاتَ الخَلِيْفَةُ العَاضِدُ صَارَ الأَمْرُ كُلُّهُ لِصَلاحِ الدِّيْنِ، وَأَصْبَحَ هُوَ سُلْطَانَ مِصْرَ.

وَأَمَّا عَنْ تَحْرِيْرِهِ لِلقُدْسِ الشَّرِيْفِ، فَتَعَالُوا مَعًا لِنَسْتَمِعَ إِلَى أَحَدِ شُهُودِ العِيَانِ، الذِيْنَ حَضَرُوا تِلْكَ المَعْرَكَةَ، إِنَّهُ القَاضِي الفَقِيْهُ "بَهَاءُ الدِّيْنِ بنُ شَدَّادٍ" صَاحِبُ كِتَابِ "السِّيَرِ الصَّلاحِيَّةِ".

يَقُولُ ابنُ شَدَّادٍ: "لَمَّا تَسَلَّمَ صَلاحُ الدِّيْنِ عَسْقَلانَ وَالأَمَاكِنَ المُحِيْطَةَ بِالقُدْسِ، شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الجِدِّ وَالاجْتِهَادِ فِي قَصْدِ القُدْسِ المُبَارَكِ، وَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ العَسَاكِرُ التِي كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي السَّاحِلِ، فَسَارَ نَحْوَهُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللهِ تَعَالَى.. وَكَانَ نُزُولُهُ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ الأَحَدِ، الخَامِسَ عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ، سَنَةَ ٥٨٣هـ. وَكَانَ نُزُولُهُ بِالجَانِبِ الشَّمَالِيِّ، فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ، العِشْرِيْنَ مِنْ رَجَبٍ.

رَأَى أَعْدَاءُ اللهِ الصَّلِيْبِيُّونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الأَمْرِ وَعَلامَاتُ فَتْحِ المَدِيْنَةِ وَظُهُورِ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِمْ. فَاسْتَكَانُوا وَأَخْلَدُوا إِلَى طَلَبِ الأَمَانِ. وَكَانَ تَسَلُّمُهُ فِي يَومِ الجُمُعَةِ، السَّابِعِ وَالعِشْرِيْنَ مِنْ رَجَبٍ، وَنَصَرَ اللهُ الإِسْلامَ عَلَى يَدِهِ نَصْرًا عَزِيْزًا.



الملك المظفر
سيف الدين قطز

إنَّهَا إرَادَةُ اللهِ - سُبْحَانَهُ - الذِي هَيَّأَ الأَقْدَارَ لِلأَمِيْرِ الطَّمُوْحِ "قُطُزَ" لأَنْ يُصْبِحَ سُلْطَانًا لِمِصْرَ. هَا هِيَ أَحْلامُهُ تَتَحَقَّقُ، وَيَتَحَقَّقُ بِهَا حُلْمُ مِصْرَ وَالأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ جَمْعَاءَ؛ فَبَعْدَ أَنْ كَانَ عَبْدًا مَمْلُوكًا، يُبَاعُ وَيُشْتَرَى، صَارَ الآنَ مَلِكًا مُتَوَّجًا، وَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَكِّدَ عَهْدَهُ الذِي قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَمَامَ اللهِ، وَأَمَامَ شَيْخِهِ "عِزِّ الدِّيْنِ بنِ عَبْدِ السَّلامِ"، إِذَا صَارَ يَومًا مَا سُلْطَانًا لِمِصْرَ، أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالعَدْلِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، حَتَّى يَطْرُدَ التَّتَارَ خَارِجَ دِيَارِ المسْلِمِيْنَ، وَيَسْحَقَهُم وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ بِإِذْنِ اللهِ.



وَهَلْ يَنْسَى "قُطُزُ"- وَهُوَ سَلِيْلُ الملُوكِ - مَا فَعَلَهُ هَؤلاءِ الطَّوَاغِيْتُ بِأَهْلِهِ، حِيْنَ حَاوَلُوا الدِّفَاعَ عَنْ بَيْضَةِ الإِسْلامِ، فَوَفَّقَهُمُ الله للنَّصْرِ عَلَيْهِمْ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ مُلُوكِ المسْلِمِيْنَ لَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يَمُدَّ لَهُم يَدَ المسَاعَدَةِ، لِيَجِدُوا أَنْفُسَهُم وَحْدَهُم فِي مُوَاجَهَةِ هَؤلاءِ الجَبَابِرَةِ، وَانْتَهَى بِهِمُ الأَمْرُ أَنْ تَمَزَّقَ شَمْلُهُمْ، وَضَاعَ مُلْكُهُمْ، وَأَصْبَحُوا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ!

أَمَّا هُوَ فَقَدْ صَارَ مَمْلُوكًا يُبَاعُ فِي الأَسْوَاقِ، وَالأَثْرِيَاءُ يَتَهَافَتُوْنَ عَلَى شِرَائِهِ، وَيَدْفَعُونَ فِيْهِ مَبَالِغَ طَائِلَةٍ، رَغْمَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ أُصُوْلِهِ المَلَكِيَّةِ، وَأَنَّ اسْمَهُ الأَصْلِيَّ: "مَحْمُودُ ابنُ مَمْدُودٍ"، وَأَنَّهُ ابْنُ شَقِيْقَةِ الملِكِ جَلالِ الدِّيْنِ بْنِ خَوَارِزْم شَاه، صَاحِبِ إِقْلِيْمِ كِرْمَانَ فِي جَنُوبِي إِيْرَانَ.

وَلَمْ يَذْكُرِ التَّارِيْخُ أَحَدًا مِنْ تِلْكَ الأُسْرَةِ إلا هَذَا الغُلامَ الصَّغِيْرَ، وَالذِي أَصْبَحَ فِيْمَا بَعْدُ أَحَدَ مَمَالِيْكِ الملِكِ الصَّالِحِ "نَجْمِ الدِّيْنِ أَيُّوبَ" بِالقَاهِرَةِ.. يَعْمَلُ تَحْتَ إِمْرَةِ سَيِّدِهِ "عِزِّ الدِّيْنِ أَيْبَكَ"، أَحَدِ كِبَارِ المَمَالِيْكِ، وَمِنَ المُقَرَّبِيْنَ مِنَ الملِكِ الصَّالِحِ.

وَقَدْ أَحَبَّهُ الأَمِيْرُ أَيْبَكُ وَجَعَلَهُ مِنْ أَشَدِّ المقَرَّبِيْنَ لَهُ، وَأَمِيْنَ سِرِّهِ؛ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءٍ، وَنُبْلِ الأَخْلاقِ، وَعُمْقِ الدِّيْنِ.

مِنْ هُنَا كَانَتِ الأَقْدَارُ تَتَهَيَّأُ لِهَذَا المَمْلُوكِ الطَّمُوحِ لأَنْ يُصْبِحَ سُلْطَانًا لِمِصْرَ.. مَاتَ الملِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّيْنِ أَيُّوبَ، لِتَتَوَلَّى عَرْشَ السَّلْطَنَةِ زَوْجَتُهُ "شَجَرَةُ الدُّرِّ".

وَتَمُرُّ الأَيَّامُ سَرِيْعَةً مُتَلاحِقَةً، وَكَأَنَّهَا تَتَسَابَقُ لِتَمْكِيْنِ قُطُزَ مِنَ اعْتِلاءِ العَرْشِ؛ فَقَدْ صَارَ سَيِّدُهُ "الأَمِيْرُ عِزُّ الدِّيْنِ أَيْبَكُ" زَوْجًا للسُّلْطَانَةِ "شَجَرَةِ الدُّرِّ"، لَكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَجْلِسُ عَلَى العَرْشِ، وَيَتَمَكَّنَ مِنْ فَرْضِ إِرَادَتِهِ، حَتَّى كَانَتْ نِهَايَتَهُ المحتُوْمَةَ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ السُّلْطَانَةِ.

وَتَنْتَهِي شَجَرَةُ الدُّرِّ عَلَى يَدِ "أُمِّ عَلِي"، الزَّوْجَةِ الأُوْلَى لِلأَمِيْرِ أيبك، فَيَتَوَلَّى ابْنُهَا "الملِكُ المَنْصُورُ نُوْرُ الدِّيْنِ بنُ عِزِّ الدِّيْنِ أَيْبَكَ"، وَهُوَ لا يَزَالُ حَدَثًا صَغِيْرًا لا يَفْقَهُ مَعْنَى السَّلْطَنَةِ.

وَهَكَذَا كَانَتِ الأُمُورُ تَجْرِي فِي طَرِيْقِهَا المحتُومِ لِيَصِيْرَ قُطُزُ - المسْئُولَ الأَوَّلَ عَنِ السُّلْطَانِ الصَّغِيْرِ- هُوَ الحَاكِمَ الفِعْلِيَّ للبِلادِ.

وَمَا أَنْ صَارَ قُطُزُ هُوَ السُّلْطَانُ، حَتَّى بَذَلَ قُصَارَى جُهْدِهِ لِنَشْرِ العَدْلِ، وَدَفْعِ الظُّلْمِ، وَإِعَادَةِ الحقُوقِ لأَصْحَابِهَا؛ فَتَحَقَّقَ عَلَى يَدَيْهِ أَمْنُ البِلادِ وَالعِبَادِ، ثُمَّ جَاءَتِ اللحْظَةُ الحاسِمَةُ، نَعَمْ، هَا قَدْ جَاءَتِ اللحْظَةُ الحَاسِمَةُ التِي انْتَظَرَهَا قُطُزُ طَوِيْلاً.. إِنَّهَا لَحْظَةُ المُوَاجَهَةِ وَنَيْلِ الثَّأْرِ، وَالانْتِقَامِ لِشَرَفِ الإِسْلامِ وَالمسْلِمِيْنَ.

كَانَتِ الأَنْبَاءُ تَتَوَالَى إِلَى مَسَامِعِ السُّلْطَانِ "سَيْفِ الدِّيْنِ قُطُزَ"، بِتَحَرُّكِ جيُوشِ التَّتَارِ وَامْتَدَّ زَحْفُهُم الآثِمُ إِلَى بِلادِ الجزِيْرَةِ، وَاسْتَوْلَوا عَلَى حَلَبَ فِي سَنَةِ ٦٥٨هـ، وَوَصَلُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَظَلُّوا يُواصِلُونَ زَحْفَهُمُ الشَّيْطَانِيَّ البغِيْضَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى نَابُلِسَ، ثُمَّ بَيْتِ المقْدِسِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلا اليَمَنُ، وَالحِجَازُ، وَمِصْرُ.

حَاوَلَ السُّلْطَانُ الجَدِيْدُ "قُطُزُ" أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَ الأُمُورِ بِشَيءٍ مِنَ الحِكْمَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَى خُطَبَاءِ المسَاجِدِ، وَكِبَارِ العُلَمَاءِ، بِأَنْ يُكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الجِهَادِ وَفَضَائِلِهِ، وَتَرْدِيْدِ السُّوَرِ وَالآيَاتِ التِي تَحُثُّ عَلَى الجِهَادِ؛ لأَنَّهُ هُوَ الطَّرِيْقُ الوَحِيْدُ للنَّجَاةِ، وَبَدَأَ السُّلْطَانُ يَسْتَعِدُّ لِمُوَاجَهَةِ التَّتَارِ فِي نَفْسِ العَامِ الذِي تَوَلَّى فِيْهِ أُمُورَ السَّلْطَنَةِ.

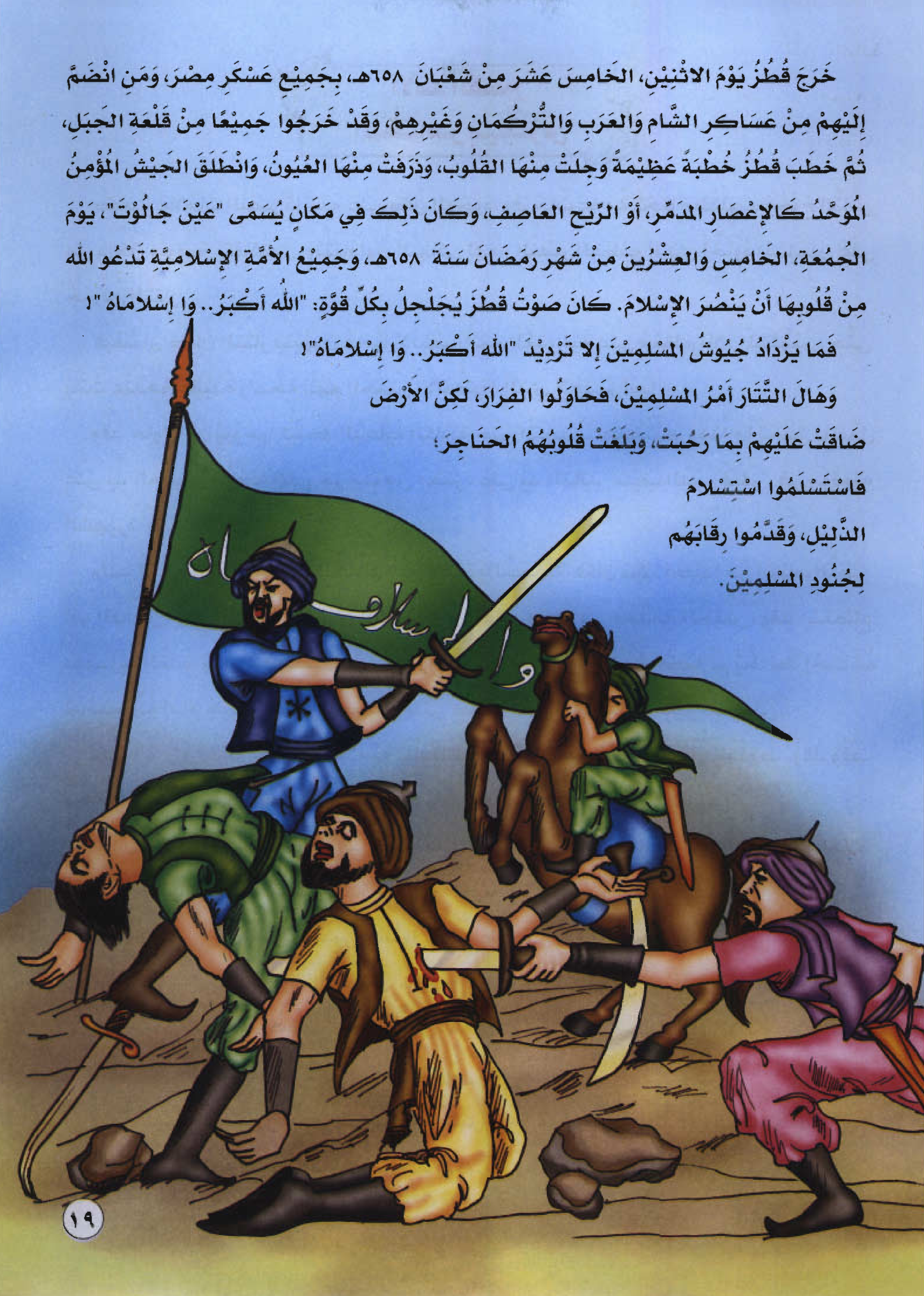
اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ سَيْفُ الدِّيْنِ قُطُزُ بِكِبَارِ الأُمَرَاءِ بِقَلْعَةِ الجَبَلِ، بِحُضُورِ فَضِيْلَةِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّيْنِ بنِ عَبْدِ السَّلامِ، وَكِبَارِ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالقُضَاةِ، وَكَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي كَيْفِيَّةِ التَّصَدِّي لِجَحَافِلِ التَّتَارِ.

تَحَوَّلَتْ مِصْرُ إِلَى وَرْشَةِ عَمَلٍ كَبِيْرَةٍ؛ مِنْ أَجْلِ تَجْهِيْزِ الجَيْشِ وَإِمْدَادِهِ بِكُلِّ مَا يَلْزَمُ مِنَ العِتَادِ وَصَارَ النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ، يَتَلَقَّونَ المَوَاعِظَ وَالخُطَبَ بِقُلُوبِهِم المَفْتُوحَةِ، فَتَسْرِي فِي أَجْسَادِهِمْ القُوَّةُ وَالعَزِيْمَةُ، فَصَارَ الجَوُّ العَامُّ فِي مِصْرَ تَسُوْدُهُ رُوحُ الإِيْمَانِ.

لَمْ يَعُدْ يُسْمَعُ فِي حَدِيْثِ النَّاسِ سِوى سِيْرَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ، وَكَيْفَ كَانُوا يُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأَصْبَحَ الجَيْشُ مُهَيَّأً لِلْمَعْرَكَةِ بَعْدَ تَدْرِيْبَاتٍ شَاقَّةٍ وَمُضْنِيَةٍ.

نَعَمْ، لَقَدْ تَوَلَّى سَيْفُ الدِّيْنِ قُطُزُ عَرْشَ مِصْرَ فِي ظُرُوفٍ شَدِيْدَةِ القَسْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ سِوَاهُ يَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلَى تَوَلِّي المَسْئُوْلِيَّةِ الخَطِيْرَةِ إِلا هُوَ.

فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَصَلَتْ رِسَالَةٌ شَدِيْدَةُ اللَّهْجَةِ إِلَى قُطُزَ مِنْ زَعِيْمِ التَّتَارِ "هُولاكُو"، يَتوعدُهُ فِيهَا.. وَمَا أَنْ فَرِغَ السُّلْطَانُ "سَيْفُ الدِّيْنِ قُطُزُ" أَمَرَ بِخرُوجِ الجيشِ لِقتَالِ التَّتَارِ.



خَرَجَ قُطُزُ يَوْمَ الاثْنِيْنِ، الخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ ٦٥٨هـ، بِجَمِيْعِ عَسْكَرِ مِصْرَ، وَمَنِ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ عَسَاكِرِ الشَّامِ وَالعَرَبِ وَالتُّرْكُمَانِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ خَرَجُوا جَمِيْعًا مِنْ قَلْعَةِ الجَبَلِ، ثُمَّ خَطَبَ قُطُزُ خُطْبَةً عَظِيْمَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَانْطَلَقَ الجَيْشُ المُؤْمِنُ المُوَحَّدُ كَالإِعْصَارِ المدَمِّرِ، أَوْ الرِّيْحِ العَاصِفِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى "عَيْنَ جَالُوْتَ"، يَوْمَ الجُمُعَةِ، الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٦٥٨هـ، وَجَمِيْعُ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ تَدْعُو الله مِنْ قُلُوبِهَا أَنْ يَنْصُرَ الإِسْلامَ. كَانَ صَوْتُ قُطُزَ يُجَلْجِلُ بِكُلِّ قُوَّةٍ: "الله أَكْبَرُ.. وَا إِسْلامَاهُ"!

فَمَا يَزْدَادُ جُيُوشُ المسْلِمِيْنَ إلا تَرْدِيْدَ "الله أَكْبَرُ.. وَا إِسْلامَاهُ"!

وَهَالَ التَّتَارَ أَمْرُ المسْلِمِيْنَ، فَحَاوَلُوا الفِرَارَ، لَكِنَّ الأَرْضَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ بِمَا رَحُبَتْ، وَبَلَغَتْ قُلُوبُهُمُ الحَنَاجِرَ؛ فَاسْتَسْلَمُوا اسْتِسْلامَ الذَّلِيْلِ، وَقَدَّمُوا رِقَابَهُم لِجُنُودِ المسْلِمِيْنَ.

الأسد الهصور
الظاهر بيبرس

كَانَتْ عَلامَاتُ النَّصْرِ تَرْتَسِمُ عَلَى كُلِّ الوجُوهِ، وَفَرْحَاتٌ عَارِمَةٌ تَجْتَاحُ القُلُوبَ، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ دَاخِلِ بيُوتِهِمْ يَتَعَانَقُونَ، وَيَتَبَادَلُونَ التَّهَانِي لِهَـذَا النَّصْرِ العَظِيْمِ الـذِي أَحْرَزَهُ المسْلِمُونَ عَلَى جُيُوشِ التَّتَارِ.

فَبَعْدَ أَنْ كَانَ التَّتَارُ يَتِيْهُونَ عُجْبًا لانْتِصَارَاتِهِم الْمُتَوَالِيَةِ عَلَى مُعْظَمِ بِلادِ المسْلِمِيْنَ، حَتَّى بَاتَتْ عِنْدَهُمْ عَقِيْدَةٌ رَاسِخَةٌ أَنَّهُم الجَيْشُ الأُسْطُورَةُ الذِي لا يُقْهَرُ أَبَدًا.

وَقَدْ حَاوَلُوا أَنْ يُرَوِّجُوا لِتِلْكَ الدِّعَايَةِ الكَاذِبَةِ حَتَّى انْكَشَفَتْ حَقِيْقَتُهُم، وَهَذَا مَا تَحَقَّقَ بِالفِعْلِ عَلَى يَدِ الجيُوشِ المؤْمِنَةِ التِي خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ، عَلَى يَدِ القَائِدِ "سَيْفِ الدِّيْنِ قُطُزَ"، فِي مَوْقِعَتِهِ الشَّهِيْرَةِ "عَيْنِ جَالُوتَ".

وَلَقَدْ تَجَلَّى نَجْمٌ سَاطِعٌ طَالَمَا أَظْهَرَ مِنَ القُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، فَكَانَ سَبَبًا أَكِيْدًا مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ إِنَّهُ الفَارِسُ "رُكْنُ الدِّيْنِ بِيْبَرْسُ البنْدِقْدَارِيُّ"؛ فَقَدْ كَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الجَيْشِ، وَقَدِ اسْتَطَاعَ بِمَقْدِرَتِهِ الفَذَّةِ، وَمَوَاهِبِهِ العَسْكَرِيَّةِ، أَنْ يَهْزِمَ طَلائِعَ التَّتَارِ وَيَسْحَقَهُمْ، كَمَا لَمْ يُخَالِطْ إِحْسَاسَهُ لِلَحْظَةٍ أَنَّهُ أَمَامَ جُيُوشِ التَّتَارِ المُخِيْفَةِ، وَالتِي طَالَمَا دَمَّرَتْ وَخَرَّبَتْ فِي دِيَارِ المُسْلِمِيْنَ.

لَكِنَّ اللهَ ﷻ قَيَّدَ لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ سُلْطَانًا عَظِيْمًا، لَمْ يَأْخُذْهُ اليَأْسُ أَوِ القُنُوطُ. وَقَدْ وَقَفَ بِجَانِبِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصَّنَادِيْدِ، عَلَى رَأْسِهِمْ جَمِيْعًا هَذَا البَطَلُ الهُمَامُ "بِيْبَرْسُ".

كَانَ لِبِيْبَرْسَ مَوَاقِفُ سَابِقَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَدَى شَجَاعَتِهِ وَصَلابَتِهِ، حِيْنَ اجْتَازَ الصَّلِيْبِيُّونَ بِلادَ مِصْرَ، وَاحْتَلُّوا مَدِيْنَةَ دِمْيَاط بِقِيَادَةِ مَلِيْكِهِمْ "لِويْسَ التَّاسِعِ"، ثُمَّ دَخَلُوا المَنْصُورَةَ.

كَانَ بِيْبَرْسُ أَحَدَ المغَاوِيْرِ الذِيْنَ تَصَدَّوا لَهُم، وَأَبْلَوا بَلاءً حَسَنًا، حَتَّى سَحَقُوهُم وَأَسَرُوا مَلِكَهُمْ.

"بِيْبَرْسُ" وُلِدَ فِي صَحْرَاءِ القَلْجَاقِ، سَنَةَ ٦٢٠هـ، ١٢٢٣م، وَوَقَعَ أَسِيْرًا فِي أَيْدِي المَغُولِ، وَهُوَ لا يَزَالُ صَغِيْرًا لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ، وَبِيْعَ فِي أَسْوَاقِ الرَّقِيْقِ بِدِمَشْقٍ، فَاشْتَرَاهُ "الأَمِيْرُ عَلاءُ الدِّيْنِ البِنْدِقْدَارِيُّ"، فَنُسِبَ إِلَيْهِ، وَأَصْبَحَ يُدْعَى "بِيْبَرسَ البِنْدِقْدَارِي".

وَلَمَّا ظَهَرَتْ نَبَاهَتُهُ، وَتَبَلْوَرَتْ شَخْصِيَّتُهُ، انْتَقَلَ لِلخِدْمَةِ ضِمْنَ مَمَالِيْكِ الملِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّيْنِ أَيُّوبَ، فَأَعْتَقَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ خَوَاصِّ مَمَالِيْكِهِ.

وَمِنْ وَقتِهَا تَرَقَّى بِيْبَرْس، وَصَارَ مِنْ كِبَارِ المَمَالِيْكِ ذَوِي الطُّمُوحِ الفَائِقِ، وَالهِمَّةِ العَالِيَةِ.

وَلَمَّا تَجَلَّتْ عَبْقَرِيَّتُهُ العَسْكَرِيَّةُ فِي مَعْرَكَةِ "عَيْنِ جَالُوْتَ"، انْتَظَرَ مُكَافَأَةً تَلِيْقُ بِهِ؛ بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ أَسْبَابِ النَّصْرِ، بَيْدَ أَنَّ السُّلْطَانَ "سَيْفَ الدِّيْنِ قُطُزَ" لَمْ يَمْنَحْهُ شَيْئًا عَلَى الإِطْلاقِ، فَقَدْ أَرْجَأَ مُكَافَأَتَهُ لِحِيْنِ العَوْدَةِ إِلَى قَلْعَةِ الجَبَلِ، حَيْثُ قَرَّرَ "قُطُزُ" فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتْرُكَ لَهُ عَرْشَ مِصْرَ، وَيَتَفَرَّغَ لِلطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ. وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهَا مُفَاجَأَةً لِبِيْبَرْسَ وَلِبَقِيَّةِ المَمَالِيْكِ، لَكِنَّ بِيْبَرْسَ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي بِمَا يَدُورُ بِخُلْدِ صَدِيْقِهِ وَسُلْطَانِهِ المُظَفَّرِ قُطُزَ، فَقَدْ ظَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ اسْتَكْثَرَ عَلَيْهِ مَدِيْنَةَ حَلَبٍ، وَالتِي كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِهَا مِنْ قَبْلُ، فَرَاحَ الشَّيْطَانُ يَفُوحُ سُمَّهُ فِي رَأْسِهِ.

وَمَا زَادَ الطِّيْنَ بِلَّةً، هَؤُلاءِ الثُّلَّةُ مِنَ المَمَالِيْكِ الذِيْنَ كَانُوا يَحْقِدُونَ عَلَى قُطُزَ، وَيَسْتَكْثِرُونَ عَلَيْهِ النَّصْرَ عَلَى التَّتَارِ، فَأَوْغَرُوا صَدْرَ بِيْبَرْسَ، وَمَنَحَهُمْ أُذُنَيْهِ لِيَنْفُثُوا فِيْهَا سُمُومَهُم أَيْضًا، حَتَّى امْتَلأَ قَلْبُهُ بِالغَضَبِ، وَلَمْ يَتَثَبَّتْ أَوْ يَتَرَيَّثْ، بَلْ قَرَّرَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ قُطُزَ، وَتَعَاهَدُوا جَمِيْعًا عَلَى ذَلِكَ.

اسْتَغَلَّ الحَاقِدُونَ مِنَ المَمَالِيْكِ ابْتِعَادَ قُطزَ عَنْ جَيْشِهِ، فَتَجَمَّعُوا عَلَيْهِ فَجْأَةً، وَنَزَلُوا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ، لَكِنَّ قُوَّاتِ السُّلْطَانِ أَسْرَعَتْ إِلَيهِ عِنْدَمَا اشْتَمَّتْ رَائِحَةَ الغَدْرِ، وَاسْتَلُّوا سُيُوفَهُم لِيُدَافِعُوا عَنْهُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ وَصَلُوا مُتَأَخِّرِيْنَ، وَكَانَ السُّلْطَانُ العَظِيْمُ قُطُزُ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ المَوْتِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ قَائِلاً: "اتْرُكُوا بِيبَرْسَ، فَقَدْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَمْنَحَهُ مُكَافَأَةً عَظِيْمَةً تَلِيْقُ بِهِ كَقَائِدٍ عَظِيْمٍ؛ لأَنَّهُ جَدِيْرٌ بِهَا حَقًّا، وَلَسَوفَ يَتَحَقَّقُ الخَيْرُ - إِنْ شَاءَ اللهُ - عَلَى يَدَيْهِ، إِنَّنِي أُعْلِنُ أَمَامَكُمْ جَمِيْعًا أَنَّنِي قَدْ عَفَوْتُ عَنْ بِيْبَرْسَ وَمَنْ مَعَهُ، وَأُوْصِيْكُمْ بِسُلْطَانِكُم بِيْبَرْسَ خَيْرًا، اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيْعُوا.. أَمَّا أَنْتَ يَا بِيْبَرْسُ، أَيُّهَا السُّلْطَانُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْمَلَ لِخِدْمَةِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِيْنَ، وَتُجَاهِدَ الأَعْدَاءَ، وَتَنْشُرَ الحَقَّ وَالعَدْلَ فِي سَمَاءِ الإِسْلامِ.

كَانَ بِيْبَرْسُ يُحَدِّقُ فِي صَدِيْقِهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ مَا يَسْمَعُ، وَالدُّمُوعُ تَجَمَّدَتْ فِي عَيْنَيْهِ، بَيْنَمَا صَرَخَاتٌ مُرَوِّعَةٌ مَكْتُومَةٌ كَانَتْ تَتَأَجَّجُ بِدَاخِلِهِ.. كَيْفَ طَوَّعَتْ لِي نَفْسِي قَتْلَ صَدِيْقِي؟!

سَامِحْنِي يَا أَعَزَّ صَدِيْقٍ! أَرْجُوكَ سَامِحْنِي! ابْتَسَمَ قُطُزُ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ، وَلَمْ يَنْطِقْ!

وَمَاتَ قُطُزُ، لِيَعْتَلِي بِيْبَرْسُ عَرْشَ مِصْرَ، وَيُصْبِحَ "الظَّاهِرَ بِيْبَرْسَ"، مَا أَنْ جَلَسَ بِيْبَرْسُ عَلَى عَرْشِ السَّلْطَنَةِ، حَتَّى وَجَدَ كَلِمَاتِ صَدِيْقِهِ قُطُزَ لا يَزَالُ صَدَاهَا يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَى تَنْفِيْذِ وَصَايَاهُ، فَبَدَأَ بِإِسْقَاطِ المُكُوسِ وَالضَّرَائِبِ، وَعَمِلَ عَلَى تَخْفِيْفِ الأَعْبَاءِ عَنِ الشَّعْبِ، وَأَطْلَقَ المَحْبُوسِيْنَ مِنَ السُّجُونِ، وَقَدَّمَ كُلَّ مَا فِي وسْعِهِ؛ لِيَنْتَشِرَ الحَقُّ وَالعَدْلُ وَالرَّخَاءُ فِي كُلِّ الأَرْجَاءِ.

وَنَجَحَ السُّلْطَانُ بِيْبَرْسُ فِي إِعَادَةِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالتِي كَانَتْ قَدْ سَقَطَتْ مَعَ سُقُوطِ بَغْدَادَ فِي يَدِ هُولاكُو، فِي ٤ مِنْ صَفَر ٦٥٦هـ، ١٠ مِنْ فِبْرَايِر ١٢٥٨م، فَاسْتَطَاعَ بِيْبَرْسُ اسْتِقْدَامَ أَحَدِ النَّاجِيْنَ مِنْ أُسْرَةِ العَبَّاسِيِّيْنَ، وَهُوَ "أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ"، وَعُقِدَ فِي القَلْعَةِ مَجْلِسٌ عَامٌّ، فِي ٩ مِنَ المُحَرَّم ٦٦١هـ، ٢٢ مِنْ نُوفَمْبِر ١٢٦٢م، حَضَرَهُ كِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَقَاضِي القُضَاةِ؛ لِيَقْرَأَ نَسَبَ الخَلِيْفَةِ عَلَى الحَاضِرِيْنَ، وَيَتِمَّ تَسْجِيْلُهُ.

وَهَكَذَا تَأَكَّدَ حُكْمُ بِيْبَرْسَ، وَأَخَذَتْ دَوْلَةُ المَمَالِيْكِ صِبْغَتَهَا الشَّرْعِيَّةَ، بِمُبَارَكَةِ الخَلِيْفَةِ "أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ، المُلَقَّبُ بِالحَاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ".

عَمِلَ الظَّاهِرُ بِيْبَرْسُ عَلَى الارْتِقَاءِ بِجُيُوشِ المُسْلِمِيْنَ، عَمَلاً بِقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وَقَامَ بِسَدِّ الثُّغُورِ، وَتَحْصِيْنِ القِلاعِ وَالحُصُونِ، وَمَدِّهَا بِالطَّعَامِ الوَفِيْرِ وَالذَّخِيْرَةِ.

وَقَدْ تَحَالَفَ السُّلْطَانُ الظَّاهِرُ بِيْبَرْسُ مَعَ "بَرْكَة خَان"، زَعِيْمِ القَبِيْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ المغُولِيَّةِ، وَتَعَاوَنَا مَعًا عَلَى مُحَارَبَةِ التَّتَارِ، عَدُوِّهِمُ المُشْتَرَكِ، وَالعَدُوِّ الأَوَّلِ لِدِيَارِ الإِسْلامِ.

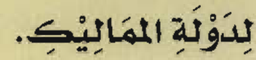
وَاسْتَطَاعَ الظَّاهِرُ بِيْبَرسُ أَنْ يُلْحِقَ بِالصَّلِيْبِيِّيْنَ هَزَائِمَ مُنْكَرَةً، وَأَنْ يَفْتَحَ قيسَارِيَّةَ، وَأَرْسُوفَ، وَقَلْعَةَ صَفَدٍ، وَيَافَا، ثُمَّ كَانَتْ قِمَّةُ انْتِصَارَاتِهِ وَأَعْظَمُهَا عَلَى الإِطْلاقِ، حِيْنَ فَتَحَ أَنْطَاكِيَةَ، فِي ٥مِنْ رَمَضَانَ ٦٦٦هـ، مَايُو ١٢٦٨م.

لَمْ يَتَوَقَّفِ الظَّاهِرُ بِيْبَرْسُ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ مُجَاهَدَةِ المَغُولِ، فَكَانَتِ انْتِصَارَاتُهُ المُبْهِرَةُ المُتَوَالِيَةُ عَلَى هَؤُلاءِ الأَشْرَارِ حَتَّى فَرَّقَ جَمْعَهُم، وَمَزَّقَ شَمْلَهُم، وَلَمْ تَقُمْ لَهُم قَائِمَةٌ تُذْكَرُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَلأَنَّ السُّلْطَانَ المُعَظَّمَ "الظَّاهِرَ بِيْبَرْسَ" كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ العِلْمَ هُوَ أَسَاسُ كُلِّ نَجَاحٍ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى بِنَاءِ المَسَاجِدِ وَتَعْمِيْرِهَا، وَإِقَامَةِ المدَارِسِ، عَلَى أَحْدَثِ النُّظُمِ العِلْمِيَّةِ المتَطَوِّرَةِ، حَتَّى صَارَ عَصْرُ الظَّاهِرِ بِيْبَرْسَ - بِحَقٍّ- مِنْ أَزْهَى عُصُورِ المَمَالِيْكِ.

وَلَمْ يَنْسَ لَحْظَةً وَاحِدَةً وَصِيَّةَ صَدِيْقِهِ قُطُزَ، بِنَشْرِ الحَقِّ وَالعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَأَقَامَ دَارَ العَدْلِ، سَنَةَ ٦٦١هـ، ١٢٦٣م، وَخَصَّصَ أَيَّامًا بِعَيْنِهَا لِيَجْلِسَ بِنَفْسِهِ لِلْفَصْلِ فِي القَضَايَا الكَبِيْرَةِ، وَمِنْ حَوْلِهِ قُضَاةُ المذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ، وَكِبَارُ المَوَظَّفِيْنَ.

وكَانَ بِيْبَرْسُ يَزْدَادُ حَمَاسًا عَلَى تَحْقِيْقِ العَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَتَأْمِيْنِ البِلادِ، فَكَانَ- بِحَقٍّ- العَصْرَ الذَّهَبِيَّ لِدَوْلَةِ المَمَالِيْكِ.





اختبر معلوماتك

- تجلت عبقرية الظاهر بيبرس فى محاربته للتتار أثناء معركة...

مرج دابق
عين جالوت
حطين

***

- استطاع سيف الدين قطز أن يطرد من بلاد الشام...

الصليبيين
التتار
الروم

***

- استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يحرر الأقصى من أيدي...

الصليبيين
التتار
الفرس

***

- استطاع القائد طارق بن زياد أن يتحرك بجيشه ليعبر البحر المتوسط إلى...

الأندلس
المغرب
فرنسا

***